2000 1230 - 0002 - ٣

حزن بالأسود والأبيض

بقلم زينا الخوري

المشهد حزين، والصور كلها بالاسود والابيض.

نحيب امهات مفجوعات... وجوه آباء هدّها القهر وجعدها الانتظار. عيون شقيقات احرقتهن اللهفة فصارت دموعهن جواز سفر الى قلوب الناس، وتذكرة عبور الى ذاكرة المسؤولين.

كلهم ينتظرون!

حملوا آمالهم وامانيهم، وذهبوا الى الحدود للقاء الاحبة... في الصقيع وقفوا وترقبوا... لكن "حادي العيس" لم يعرج عليهم ولم يرجع الاحبة من بيداء الوعود. فانفجر بركان الدمع، وتفتحت الجروح القديمة.

ومع الصباح تشرعت الصناديق المنسية، واخرجت الصور السوداء، التي قضم شعاع الايام اللون عن زواياها.

❁ ❁ ❁

كل مواطن في لبنان احس هذا الاسبوع، بانه رجع ربع قرن الى الوراء!

شعرنا بأزيز الرصاص من جديد. سمعنا هدير المدافع. ارعبنا صوت مجنزرة عبرت لحظة في افق الخيال.

كل فرد، مرت به هنيهة، خال نفسه خلالها، يجمع اشياءه مسرعا ويهرع الى برد الملجأ ويختبئ في عتمة الزوايا هربا من ذاك الزمن العصيب الذي دمر الانسان ودمر لبنان!

ظالمة كانت الحواجز. لم تخلّ منها طريق. لم تفتقدها منطقة. لم تنج من شرور سكينها لا ديرة ولا عشيرة.

كلهم دخلوا اللعبة، كلهم شرعوا السيوف واعلنوا موعدا مع البطولة المزيفة، اختاروا ان يكتبوا اسماءهم "بحبر العتم" ... حتى غرقت بلادنا في العتم!

واليوم، من تراه يريد ان ينبش القبور؟

من حق كل مواطن ان يعرف مصير مفقوده الغالي الذي خرج ولم يعد! ولكن هذا الملف، القديم المقفل، والمشرّع على كل انواع المآسي، لمصلحة من يعاد فتحه؟

لماذا كلما علا صوت من الشرق يخرج صوت آخر من الغرب؟

اذا حملت ام صورة ابنها – الذي زارته في سجن "معروف" منذ وقت قليل – وشرّعت ذراعيها متضرعة الى السماء، هاتفة الى المسؤولين لمواصلة العمل للافراج عنه... خرجت امهات مع صور ابنائهن، وخلفهن هتاف عتيق، يسترجع طعم الايام المرة والليالي السوداء...

كأننا نسعى لمعادلة تناقضات! أو كأن هناك من يرفض ان تتوقف الدوامة، ويريدنا ان نعيش الكابوس بلا هوادة، ونبقي الجروح مفتوحة، والاسنان مسنونة، والعيون فاجرة، والعقول جاهزة، لمعاودة الحريق ولعبة النار.

كأن هناك من يرفض الدخول في هدوء الربيع، ولا يغفو الا على هدير العواصف وقصف الرعد وجنون الزمهرير!

❁ ❁ ❁

وبعد اقفال ملف "المهجرين" هل هناك نية عند بعض الذين يعرفون من اين تؤكل الكتف لفتح ملف جديد اسمه "المفقودون"؟

هل النية هي المتاجرة بالبشر بعد انتهاء تجارة الحجر؟

هل القطبة المخفية في هذا الملف الواسع، عنوانها الصغير هو: "التعويضات"؟

هناك من يتقن جيدا لعبة الابتزاز، ويعرف بدقة كيف يحضر الملفات (صحيحة كانت ام مزيفة)، انطلاقا من مبدأ الشفقة على مكسور الخاطر، والتعاطف مع المفجوع الصابر... والتاريخ حافل بالامثال.

اما بعد، وقد انتهت الحرب على مبدأ "لا غالب ولا مغلوب" "وعفا الله عما مضى"، وبعد عشرين عاما من الصمت، لمن تقرع الاجراس؟ ولماذا ترفع رايات الحزن؟ والى اين تنطلق مواكب المشيعين؟

الفارق واضح وشاسع، بين سجين منسي في عتمة الزنزانة، ومن واجب كل مسؤول ان يبحث عنه ويعيده الى حضن امه ونسيم الحرية، وبين "مفقود" مجهول المصير اختفى منذ ربع قرن، في زمن بغيض، شوّه الانسان والانسانية. وقد اختار كل لبناني ان يودع جرحه، في الجانب المعتم من الذاكرة، كي يشرق النور على تراب الوطن بأسره.

❁ ❁ ❁

تلك الصور المؤلمة – بالاسود والابيض – لا تعيد الى العيون غير ثوب الحداد فيما الوطن يفتش عن لحظة فرح ضائعة!